المدرسة النحوية الأندلسية منهجها وأهم أعلامها

تمهيد:

و اكبت العلوم الإسلامية انتشار هذا الدين، و لم يمض وقت طويل بعد فتح الأندلس حتى رأينا أن العلماء بدأوا يجمعون بين العلوم الفقهية، و الدراسات اللغوية لما لها من صلة بالقرآن الكريم، و كان من رواد هذا الاتجاه في الأندلس: أبو موسى الهواري[ ]، الذي رحل إلى المشرق و التقى بالإمام مالك و نظرائه، ثم داخل الأعراب في محالّها، و أخذ عن الأصمعي و أبي زيد الأنصاري، و ألف في القراءات. و لما ضاعت كتبه في رحلته، كان يقول «ذهب الخرج، و بقي ما في الدرج، أنا شعبي زماني» و كان أهل قرطبة يقدمونه في الفتوى على عيسى بن دينار الغافقي (ت 212هـ) و على أبي عثمان سعيد بن حسان الصائغ (ت 213 هـ) . بيد أن أول من اختص في النحو هو جودي بن عثمان (ت 198 هـ[ ]، قيل عنه إنه أول من صنف في النحو في الأندلس، بعد ما تتلمذ للكسائي و الفراء، و هكذا شق النحو الكوفي طريقه إلى الأندلس، و رسخت قدمه على يد مفرج بن مالك النحوي المعروف بالبغل[ ] الذي شرح أحد كتب الكسائي، مثل ما فعل بعد ذلك بنحو قرن أحمد بن أبان النحوي (ت 382 هـ.

و يرى الأستاذ علال الفاسي أن النحو الكوفي، استمر في المغرب، كما يشهد لذلك اصطلاحات ابن أجروم الصنهاجي، و اختياراته، و يعيد السبب في تأصله إلى تعلق المغاربة بما ترمز له الكوفة من ولاء لعلي بن أبي طالب و للعترة الشريفة[4] ، و في أواخر القرنالثالث الهجري أدخل محمد بن موسى بن هاشم الأقشتين [5]كتاب سيبويه، و انطلقت حركة قراءته، و توالت عليه التعليقات و الشروح، و ممن اشتهر بدراسته هارون بن موسى القرطبي الذي شرح عيون الكتاب.و شهد القرن الرابع الهجري تطورا كبيرا في الدراسات النحوية و اللغوية في الأندلس، امتاز بامتزاج عدة اتجاهات سيكون لها الأثر البالغ في تكوين المدرسة المغربية: منها امتزاج بين آراء الكوفيين و البصريين، و تطوير المذهب البغدادي و تقنينه و تلاق بين المنطق و النحو، و تركيز على التحاليل و التدقيق و الاستنباط.

النحو البصري

و كان رائد هذه الحركة محمد بن يحي المهلبي الرباحي (ت 353 ه) تلميذ أبي جعفر النحاس.اشتهر الرباحي بحذقه لعلم العربية، و دقة نظره فيها، و لطف مسلكه في معانيها . فكان غاية في الاستنباط، عرف طرق المتكلمين، و ناظر الفقهاء، و شارك أهل الطب و التنجيم.

ها هي كانت خصائصه الفكرية و العلمية، و لقد أتيح له أثناء رحلته إلى المشرق أن يصحب عالمين ساعد كل منهما في مجاله أن ينمي مواهبه حتى بلغ ما يروم .صحب الرباحي أبا جعفر أحمد بن محمد الصفار المشهور بالنحاس.

و غرف من فيض علمه الشيء الكثير. و هو الذي أخذ عنه رواية كتاب سيبويه.

كما صحب أيضا عليا بن الحسن المصري المعروف بعلان) (ت 337 ه) و هو ممن قيل عنه إنه من ذوي النظر و الإدقاق في المعاني، و إنه كان قليل الحفظ للأصول، لكنه إذا حفظ أصلا يتكلم عليه بأحسن الكلام، و أتى بأجود التحليل.

و هكذا أخذ الرباحي علم الرواية عن النحاس، و أخذ علم الدراية عن علان، فرسم للأندلسيين منهجا يرمي إلى تدبر أصول هذا العلم و عرض الآراء فيها على محك النقد المتحرر، و الحرص على حسن الاختيار.

لقد كان الرباحي من ألمع اللغويين في المشرق، و لما دخل الأندلس بث فيها معارفه الواسعة بالأدب و الشعر و اللغة. و لقد وجد الرباحي الدراسة النحوية قاصرة على المؤدبين الذين يقول عنهم الزبيدي: (ليس عندهم كبير علم فكانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل و ما شاكلها، و تقريب المعاني لهم في ذلك، إذ لم يأخذوا بأنفسهم بدقائق العربية و غوامضها والاعتلال لمسائلها.[8])

فكانوا مثلا لا يحسنون النظر في الأبنية و التصريف، و لا يفقهون قواعد الإمالة و الإدغام.

فطلع عليهم الرياحي بمنهج جديد متطور، حيث أنه:

أولا :نقل إليهم كتاب سيبويه، برواية متصلة، ليعتمد أساسا ناسخا لما عرفته الأندلس قبل، من نحو الكوفيين أمثال الكسائي و الفراء، و من الملاحظ أن رواية الرباحي صارت البضاعة التي ردت إلى المشارقة لأنها أشهر الروايات و عليها اعتمد طابعو الكتاب و مصححوه.[9]

ثانيا :بيّن لعلماء الأندلس «ما عليه أهل هذا الشأن في الشرق، من استقصاء الفن بوجوهه و استيفاء حدوده» . فأعاد منهاج الدراسات و البحوث حتى شملت جميع أبواب النحو التي كانت شبه مهملة.

ثالثاأسس سبيل النظر كما يقول الزبيدي، أي أنه أوضح قواعد لغة السماع، و مجالات القياس و دقائق التعليل، فكان دأبه الغوص على دقيقة يستخرجها، و لطيفة يثيرها، و قياس يمده، و أصل يفرعه.(

فتأكّد تأثيره في تلميذه الزبيدي و من جاء بعده، و تأصل في مدرسته التعمق في البحث عن أوجه الأبنية، و عن أصول القواعد، و نكت التعاليل وجودة القياس.

و كان لرحلة أبي علي القالي المشهورة إلى الأندلس أثرها البالغ في هذا التطور الذي بلغ ذروته في هذا المجال عند ابن سيده صاحب كتاب المخصص اللغوي و المتضمن لأهم البحوث النحوية من لدن سيبويه إلى ابن جني.

ثم تبلورت كل هذه الاتجاهات في صيغة مناهج المدرسة المغربية الأندلسية و من أوائل منظريها الأعلم الشنتمري، الذي جمع بين الدراسات اللغوية، و المسائل النحوية.

✓ تيسير النحو في الاندلس وأهم مظاهره:

إن صعوبة النحو البصري أدى بكثير من علماء النحو في الأندلس إلى الدعوة الى تيسير النحو وتسهيله قصد تقريبه من أذهان المتعلمين وقد اخذ هذا التيسير عدة أشكال وصور أهمها:

- تنظيم الأبواب النحوية وترتيبها

- الاختصار والإيجاز
- انتشار الشعر التعليمي
- شرح المؤلفات النحوية
- تخليص النحو مما أقحمه بعض العلماء عليه ما ليس منه كالفلسفة والمنطق
- الثورة على العامل النحوي والعلل
- إلغاء القياس

✓ **دوافع التيسر:**

- اختلاف الأجناس التي كانت تسكن الأندلس وتعدد اللغات فيما بينها فهناك العرب الفاتحون، والأمازيغ الفاتحون أيضا والأعاجم.
- البعد الجغرافي بين الاندلي والمشرق العربي ولد ضعفا في فهم قواعد النحو وذلك لقلة العلماء الوافدين إليها.
- دعوة عدد من العلماء إلى ضرورة تيسير النحو وتبسيطه للمتعلمين